الأدب والتاريخ

مصطفى صادق الرافعي

١٨٨٠ – ١٩٣٧

للأستاذ محمد سعيد العريان

– ٣١ –

مقالة للرسالة (٢)

كان أكثر جلساء الرافعي في هذه الفترة هم الأصدقاء (س . ا . ع)، فكان لهم سره ونجواه، وإلى موعدهم مغداه ومراحه؛ وكان حديثهم إليه وحديثه إليهم هو عنده مادة الفكر وموضوع الكتابة؛ وكان لكل واحد من الثلاثة الأصدقاء في هذه الفترة مشكلة تملأ فراغ رأسه، فهي له في الليل مشغلة وفي النهار مشغلة ...

أما (س) فكان على نية الزواج، وقد ترامت أمانيه إلى واحدة من أهله، ولكن (التقاليد) وقفت بينها وبينه موقفاً ما، أورثه ضجراً وملالة وسخطاً على الناس وتبرُّماً بالحياة وخروجاً على ما تواضع الناس عليه من التقاليد في شئون الزواج ...

وأما (ا) فكان في عهد بين عهدين من حياته: قد ودّع ماضيه بما فيه من عبث وتجانة، وطلّق شهواته ونزواته إلى عهد يستشرف إلى ما فيه من المتاع الحلال في ظلّ الزوجة المحبوبة المحبّة؛ فسمّى زوجته وعقد عقده، ثم وقف ينتظر اليوم الذي يبني فيه بأهله قلقاً عجلان، واليوم الموعود لا يحين لأن التقاليد تبعد به كلما دنا موعده ...

وأما (ع) فشاب قد انفرد في الحياة من أهله: فقد أمه وهو غلام، فما كاد يستوي شبابه حتى مضى يلتمس ما فقد منذ طفولته من حنان الأنثى، فتزوج، ثم فقد زوجه؛ ثم تزوج، فما بقيت الثانية إلا بمقدار ما بقيت الأولى، ولكنها خلّفت بضعة منها بين يديه مصوَّرة في طفلة سلبتها القدرة أنها يوم منحتها الحياة!

... هو أب ولا زوج له، وهو عزَب وكانت له زوجتان، وهو فتى يؤمن بالله ويلحد في القدر، وهو شخصيتان منفصلتان تعرف إحداهما في المسجد وتعرف الثانية في الشارع، وله عين عفة وعين فاجرة؛ وله في الحياة تجربة ورأي، وله إلى الهوى واللذات مثلُ اندفاع الشاب الذي لم يذق ولم يجرب بعد!

ثلاثة نفر لكل منهم رأيه في الحياة ومذهبه، ولكنهم قد التقوا في مجلس الرافعي على هوى واحد، فأحلوه من أنفسهم وأحلهم من نفسه؛ فكان له من أحاديثهم شعور الشباب ولهم من حديثه حكمة الشيخ، وللأدب من كل مجلس يجمعهم وإياه موضوع حي مما كتب الرافعي لقراء الرسالة ...

ومن هذه الموضوعات «قصة أب»

ذلك هو الصديق (ع) كان الله له ... !

جلس مجلسه يوماً إلى الرافعي يشكو بثه وهمه والدموع تترقرق في عينيه؛ واستمع الرافعي إلى شكاته متألماً حزيناً؛ فما فرغ (الأب) من قصته حتى جمع الرافعي (قصاصات) الحديث فجعلها في جيبه وجلس يتفكر ... ثم كانت «قصة أب»

وفي الأسبوع التالي كان زفاف ابنته إلى ابن أخيه[1] في حفل أهلي خاص وصفه الرافعي في مقاله «عرش الورد»؛ وهو العرش الذي نظمه بيده الأستاذ سامي الرافعي لمجلس العروسين، وجعل فيه فنّه وعاطفته نحو أخته وابن عمه وقدّمه إليهما هدية عرس

الحية، فيترجم أولاً إلى اللغات الانجليزية والفرنسية[1]، وما ذلك إلا لأن ترجمة كلام الله الكريم في كتابه العزيز أمر مستحيل. كذلك تألفت في حيدر آباد (الدكن) هيئة جمعت عدداً من أجلاء الهند بنيتها نشر ترجمة للقرآن الكريم بمختلف اللغات الحية مبتدئة باللغة الانكليزية تتفق ومذهب أهل السنة.[2]

وإذاً ما هي قيمة جميع التراجم الموجودة للقرآن؟

(لم يبق بقية)

ابراهيم ابراهيم يوسف

(١) راجع:
Oriente Modeno, XVI, 1936, S. 292 f. 560, 710 f, und XVII 1937, S, 114

(٢) راجع:
Oriente Moderno, XVI, 1936, S. 311 f

(١) هو الأستاذ محمد سعيد الرافعي مبعوث كلية الزراعة في أمريكا، وزميل الأستاذ سامي الرافعي ابن المترجم

ولما جلس العروسان ذراعاً إلى ذراع فى عرش الورد، بارك لهما الرافعى ودعا ؛ ثم خرج ليمضى ساعات فى القهوة . ولقيني هناك وحدى ، فانتحينا ناحية على حيّد الشارع لا يترامى إليها من أضواء القمر إلا شعاع حائل ؛ وكان الرافعى يؤثر دائماً أن يجعل مجلسه على ذلك الرصيف فى جانب من القهوة ، ويسميه « بلاج طنطا » إذ كان انفساح الشارع أمامه ، وما يتعاقب عليه فى الليل والنهار من ألوان الجمال فى الطبيعة والناس — مما يحبّب إلى العين أن تنظر ، وإلى النفس أن تنبسط ، وإلى الفكر أن يبدع فيما يخلق من ألوان الجمال ...

وكان الليل نائما يحلم ، والطبيعة ساجية لا يُسمع من صوتها إلا همسٌ خافت ، وفى الجو شعر يهزج فى سرار النسيم وفى حفيف الشجر ، وعرائس الخيال تطيف راقصة تنفح بالعطر وترفُّ بالنور.. ولكن الرافعى جلس بجلسه صامتاً لا يتحدث ، إلا كلمات إلى النادل يطلب كوب ماء ليشرب أو جمرات للكركرة ... واحترمتُ صمته فسكتُّ عنه ...

ومضت ساعة ، ثم رفع عينيه إلىّ وهو يقول : « الليلة عُرس ابنتى ... ! »

ولم يسمع جوابى ، لأن دمعة كانت تترقرق فى عينيه وهو يتحدث حبستنى عن الجواب ... !

دمعة لم أترجم معناها إلا بعد سنتين ، يوم جاءنى يقول والدمع يلمع تحت أهدابه : « إن وهيبة مسافرة إلى زوجها فى أمريكا ؛ ليس من الحق أن تبقى هنا وهو هناك ! »

ثم يوم جاءنى بعدها يقول وفى يده صحيفة أمريكية . « انظر هذه الصورة ، إنهم يسمونه هناك : أسفر سائح مصرى فى أميركا .. إنه حفيدى الصغير ... ! »

لقد كان الرافعى يحب أولاده حباً لا أعرف مثله فيمن أعرف؛ ووهيبة كبرى أولاده ، ذكرها فى « الديوان » ، وغنى لها فى « النظرات » وأرّخ زواجها فى « عرش الورد »

* * *

وكانت المقالة التالية هى « الانسانية العليا »

وهى باب من القول فى الأدب الدينى تنتظم مع « وحى الهجرة » و « الاشراق الالهى » و « سموّ الفقر » تحت باب واحد . . .

... كان يعتاد الرافعى كما يعتاد كلّ إنسان ، نوباتٌ من الضيق والهم تقعد به وتصرفه عما يحاول من عمل ؛ ولم يكن له علاج من هذا الضيق الذى يعتاده إلا أن يقرأ قرآناً أو ينظر فى كتاب من كتب السيرة النبوية ، فينفرج همه وينزول ما به ، ويهون عليه ما يلقى من دنياه ...

فى نوبة من هذه النوبات التى تضيق بها الدنيا على إنسان ، تناول الرافعى كتابا من كتب الشمائل يسرّى به عن نفسه، فاتفق له رأى ... وخرج من مطالعته بمقالة « الانسانية العليا »

***

... وكان للرسائل التى ترد للرافعى فى البريد من قراء الرسالة أثر يوحى إليه فى أحيان كثيرة بما يكتب لقرائه، فهى منهم وإليهم؛ فمنذ بدأ الرافعى يكتب فى الرسالة أخذت رسائل القراء ترد إليه كثيرة متتابعة فى موضوعات شتى ولمناسبات متعددة ، حتى كان يبلغ ما يصل إليه أحياناً فى اليوم الواحد ثلاثين رسالة ؛ وكان يقرؤها جميعاً ويحفظها فى درج خاص من مكتبه ؛ وسأتحدث عن هذه الرسائل فى باب خاص له موعده ، إنما يعنينى اليوم أن أتحدث عن الموضوعات التى استملاها من رسائله . ومن هذه الموضوعات مقالة « تربية لؤلؤة »

كانت تصدر فى القاهرة فى ذلك الوقت مجلة (الأسبوع) وقد فتحت صدرها لطائفة من شباب الجنسين يكتبون فيها وحى عقولهم وقلوبهم و ... وغرائزهم ، وكانت صفحاتها لهؤلاء الشبان والشابات أوسع من صدر الحليم ، فلم تلبث بهذه السماحة أن صارت — كما يقول العامة — بطن حمار ! وأصبحت ميداناً للغزل البريء وغير البريء ، وموعداً من مواعد التلاقى والوداع

وفى صبيحة يوم ، حمل البريد إلى الرافعى رسالة من سيدة كريمة ، تلفته إلى محاورة داعرة تعترك فيها أقلام طائفة من الشبان فى مجلة الأسبوع . وبعث الرافعى فى طلب أعداد المجلة فجيء بها ؛ فما قرأها حتى تناول القلم وأملى على مقالة « تربية لؤلؤة »

فى هذه المقالة ، خلاصة رأى الرافعى فى حرية المرأة وحقها فى المساواة ؛ وترى لهذا الرأى بقية فيما نشر من مقالات الزواج والطائشة، والجمال البائس، وغيرها ؛ وهو يزعم أنه بهذا الرأى من أنصار المرأة عند من يعرف أين يكون انتصار المرأة . وللرافعى حين يتحدث فى هذا الموضوع حجة قوية وبرهان ماض ، إلى

روح رفافة وشعر ساحر . ولست واجداً أحداً يرد عليه في ذلك على قلة من تجد من أنصاره ، وقد جلست مرة إلى المربي الكبير الأستاذ محمد عبد الواحد خلاف نداول الرأي في أدب الرافعي ومذهبه الاجتماعي لمناسبة ما فيما كتب الرافعي للرسالة ، فقال لي : « إنك لن تجد أحداً من أنصار الجديد يرضى هذا المذهب ، ولكنك لن تجد أحداً — أيضاً — يستطيع أن يصاول الرافعي في هذا الميدان بمثل حجته وقوة إقناعه ... ! »

... وأرضى الرافعي بهذا المقال السيدةَ الكريمة التي كتبت إليه ، ولكنه أغضب مئات من القارئات وعشرات من القارئين ؛ فانثالت عليه الرسائل من هؤلاء وهؤلاء غاضبة مستنكرة ، إلا بضع رسائل . . .

ولما كتب مقالة « تربية لؤلؤة » وأرسل بها ، ركب قطار البحر إلى الإسكندرية ليستريح يوماً هناك ، يتزوّد فيه لفنه وأدبه من عرائس الشاطئ . . . كان قد كتب مقاله السالف وأرسل به ، ولكن معانيه بقيت في نفسه ؛ فلما ذهب إلى الشاطئ وجد تمام موضوعه ، فعاد ليملي عليّ مقالة « لحوم البحر » وهي قصيدة مترجمة عن الشيطان على نسق من النثر الشعري فاق فيه الرافعيُّ وغلَب . . .

* * *

كان للرافعي عادةٌ حين يعجبه موضوع مما كتب أن يسأل عنه كلَّ من يلقى من أصحابه . . . « هل قرأت مقالتي الأخيرة . . . ؟ وما رأيك فيها . . . ؟ هل يملك أحد أن يعرض لرأيٍ فيها بالنقد . . . ؟ »

وكان يمتدّ كثيراً بمقالة « تربية لؤلؤة » ، وفي ذات مساء بعد نشر تلك المقالة ، قصد إلى القهوة ليريح أعصابه ؛ فصادف الأصدقاء (س . ا . ع)[1] ؛ فما كاد يستقر به المجلس بينهم حتى أخذ يسأل كل واحد : « هل قرأت . . . ؟ ما رأيك . . . ؟ هل يملك أحد . . . ؟ »

كان للرافعي في كل واحد من أصدقائه الثلاثة رأي ، وكان لكل واحد في نفسه حقيقة ، ولهم في الحياة نظرات تقترب وتقترب ؛ وكلهم قد حُرِموا المرأةَ لوناً من ألوان الحرمان ؛ ولكل منهم في المرأة رأي ؛ مما تخيّلها ، أو مما كابدها ، أو مما شقي بها . . .

والرافعي رجل قد فارق الشباب وخلعه فيما خلع من ماضيه ؛ وإنه لزوج وأب ويوشك أن يكون جدًّا ؛ فلا قدرة له على أن يعود الفهقرى إلى ماضي شبابه يستوحيه خواطر الفتيان وأحلام الشباب في المرأة والحب والزواج ؛ وهؤلاء الأصدقاء — على ما قدّمتُ من نموّهم في أول هذا الفصل — تجمعهم صفة المزوبة على اختلاف ألوانها ؛ وما يزالون في باكر الشباب وفي يقظات الحلم ؛ وكلهم قد مارس المرأة نوعاً من المراس : في وهمه أو في حياته ...

فما كاد الحديث يبدأ بين الرافعي وأصدقائه حتى أخذ يتشعب فنوناً ، وساقهم الرافعي بحسن احتياله إلى هدف يرمي إليه ... فما انفض المجلس حتى كان ثلاثتهم على ميعاد مع الرافعي ليجيبوه كتابةً عن أسئلة ثلاثة وجهها إلى كل منهم ، على أن يلتزم الصدق ، ويجانب الحياء ، ويخلص في الإجابة ؛ وكانت الأسئلة هي :

(ا) كيف ترى المرأة في وهمك ؟ وأين مكانها من حياتك ؟ وماذا مارست من شأنها وعرفت من خبرها ؟

(ب) لماذا لم تتزوج ؟

(حـ) صف ما تحب من أخلاق زوجتك المستقبلة ؟

وجاء الميعاد المضروب ، وسعى الأصدقاء الثلاثة إلى الرافعي بأجوبتهم ؛ فمنها كانت مقالة الرافعي (س . ا . ع) وهي أولى مقالاته في الزواج ؛ ثم تتابعت مقالاته في هذا الموضوع ، خطا بها إلى قلوب الشباب خطوات ، وكان بينهم وبينه من قبلُ سد منيع

قبل أن يكتب الرافعي هذه المقالة بأيام ، جاءه رسالة من بعض الأدباء يسأله أن يكتب إليه في أسباب أزمة الزواج ؛ استيفاء لبحث يهم أن يصدره في كتاب ... وأحسب أن هذا السؤال كان الحافز الأول للرافعي إلى الكتابة في هذا الموضوع . وقد بعث الرافعي إلى السائل بجواب سؤاله ؛ وكان جواباً فيه كثير من الدقة والتحديد والعمق ، ولم أقرأه منشوراً منذ أرسله إلى طالبه

بدأ كثير من الشبان يهتمون بما يكتب الرافعي ؛ إذ كان بهذا الموضوع يعالج مشكلة كل شاب عَزَب ، وتضاعفت رسائل القراء إليه ، وطال الجدل في موضوعه بين طوائف من الشباب في مجالسهم الخاصة ...

(١) ا و ع : هما الصديقان أمين حافظ شرف ، وعبد الله عمار ؛ وكانا زميلي الرافعي في محكمة طنطا

فلما كانت أيام بعد مقالة (س . ا . ع) جاء إلى مجلسنا فى القهوة شاب من أصدقائنا المتأدبين ، هو الأستاذ اسماعيل خ ، وهو محام ناشئ له ولوع بالأدب وشهوة فى الجدل ، وفيه إلى ذلك لين فى الخلق وشذوذ فى الطبع ؛ وكان الرافعى يعرفه عرفاننا فما رآه حتى وجد فيه عنوان مقالة ... قال عليه يسأله ضاحكا ... وأجاب الأستاذ إسماعيل : « الزواج ! وما يحملنى على هذا العنت ؟ أتريدنى على أن أبيع حريتى من أجل امرأة ؟ ... » ومضى يؤيد دعواه بالبراهين والأمثال ...

وتم للرافعى موضوعه ، فأملى علىّ فى اليوم التالى مقالة « استنوق الجمل »

فى هذه المقالة يجد القراء سبباً آخر لانصراف الشباب عن الزواج غير ما قدّم س . ا . ع فى المقالة السابقة ؛ فهى الحلقة الثانية من هذه السلسلة ...

وأحس الرافعى بالتعب ، فانصرف عن الكتابة أسبوعاً ليستجم ، ولمّ من هنا ومن هناك طائفة من منثور القول فأرسله إلى الرسالة بعنوان كلمة وكليمة . وهي عبارات قصيرة من جوامع الكلم ، ليس بينها رابطة فى الفكر ولا فى الموضوع ، وكل كلمة منها موضوع بتمامه

وقد قدّمت القول عن هذه الكلمات القصار التى كان الرافعى ينشرها بعنوان « كلمة وكليمة » ؛ فحسبى هنا أن أشير إلى موضوع هذه الكلمات ودوافعها :

فى هذه الكلمات التى نشرها بالعدد ٦٥ سنة ١٩٣٤ كلمات عن المرأة والحب ؛ وهذه من فضلات المعانى التى اجتمعت له فى مقالات المرأة والزواج ولم يجد لها موضعاً مما كتب . . . وفى هذه الكلمات رسائل إلى (فلانة) من تلك الرسائل التى قدّمت الإشارة إليها عند الحديث عن حب الرافعى . وفيها كلمات عن السياسة المصرية يعرف دوافعها من يذكر الحال السياسة التى كانت فى مصر لذلك العهد وحكومة صدقى باشا تحتضر . . .

فمن هذه العناصر الثلاثة اجتمع له هذا القدر من كلمة وكليمة

« طنطا » محمد سعيد العريان

* * *

ورجاء إلى الاخوان الذين يشرفوننى برسائلهم أن يجعلوا عنوانى (مؤقتاً) على دار الرسالة حتى تستقر بى الرحلة

تعليم أبنـــاء الفقراء
فى انجلترا

للآنسة الفاضلة أسماء فهمى
درجة شرف فى التاريخ ودرجة الأستاذية من انجلترا
وأستاذة بمعهد التربية

استأثرت الطبقات الغنية فى انجلترا بما كان يعد أرقى أنواع التعليم والثقافة إلى ما بعد منتصف القرن التاسع عشر . وكان يتلقى أبناء تلك الطبقات العلم فى المدارس الخصوصية وفى جامعتى اكسفورد وكمبردج ، ذات النفقات الباهظة والنزعة الأرستقراطية البحتة ، تلك المعاهد التى استحالت بالتدريج إلى معاهد خاصة يذوى اليسر والجاه وأن لم تنشأ فى أول الأمر من أجل هذه الطبقة بالذات

أما أبنـاء الطبقات الفقيرة فكانوا يتلقون قشور العلم فى مدارس أولية متواضعة تشبه الكتاتيب فى مصر فى أكثر نظمها وأساليبها . وكان يقوم بتأسيس هذه المدارس الجمعيات الخيرية وأهل البر والإحسان ؛ أما الحكومة فلم تتدخل فى أول الأمر تدخلاً مباشراً فى شئون التعليم بل اكتفت بتقديم الأعانات المالية للجمعيات ابتداء من سنة ١٨٣٣ ، وبتكوين اللجان من حين إلى حين لدرس حالة التعليم وتقديم الاقتراحات والتقارير للقائمين بشأنه ، مما كان له أثر يذكر فى النهوض بالتعليم وتوجيهه التوجيه الصالح

ولقد كانت نظرة الحكومة والمتطوعين لنشر التعليم بين الفقراء قاصرة مبتورة ، إذ كان الغرض مجرد القضاء على الأمية وتعليم الأطفال بعض الأعمال اليدوية التى قد تساعدهم على كسب الرزق . وعلى ذلك كان منهج الدراسة الأولية عبارة عن مبادئ القراءة والكتابة والحساب والدين ذلك الذى كان يمزج بتلقين الطاعة للرئيس والقناعة بنصيب المرء فى هذه الحياة الدنيا . والواقع أن التعليم كان مبنياً على أساس الاحتفاظ بنظام الطبقات المتيق وخضوع الفقراء للأغنياء ، فكان يخشى أن يؤدى التوسع فى تعليم الفقراء إلى عدم رضائهم بحظهم من الحياة . ولقد تجلت تلك النظرة المحدودة فى تقرير اللجنة المعروفة بلجنة نيوكاسل Newcastle Commission التى عهد إليها بدراسة حالة تعليم أبناء الشعب فأصدرت تقريراً وافياً عام ١٨٦٠ أعلنت فيه رضاءها عن حالة